

إبراهيم القادري بوتشيش\*

## المؤتمر الدولي الثالث لـ «عالم الإسلام: المجتمع والتاريخ والثقافة»

موسكو، ٢٢ - ٢٤ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠١٤

في موضوع «بعض الجوانب والاتجاهات في دراسات حول الحضارة الإسلامية في البلدان الناطقة بالألمانية خلال الخمسين سنة الماضية»، ومحاضرة Alexander Knysch من جامعة ميشيغن الأمريكية في موضوع: «الدراسات الأكاديمية والمذهبية الإسلامية: تقارب أم رفض متبادل؟». كما ألقى الأكاديمي الروسي إفجيني زيلينيف (E. I. Zelenev) من مركز البحوث الآسيوية والأفريقية - المدرسة العليا للاقتصاد بسانت بطرسبورغ، محاضرة تحت عنوان: «مغزى الفتنة ومفاهيم الثورة في الثقافة السياسية العربية-الإسلامية خلال القرنين ٢٠ و ٢١».

وأعقبت الجلسة الافتتاحية مناقشات عميقة كان نصيب الأسد فيها للباحثين العرب الذين أثاروا مسألة استمرار هيمنة الصورة النمطية للإسلام على عقلية الغرب، والإساءة إلى العقيدة الإسلامية ورموزها الدينية، وضرورة إعادة مراجعة مفاهيم التطرف والإسلاموفوبيا، والبحث في المبادئ المؤسسة للمشترك الحضاري، وقواعد التسامح والتعايش. كما نوقشت المفاهيم المتبسة للثورة والفتنة في تاريخ الإسلام، وانعكاساتها على المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

شاركت في تنظيم المؤتمر الدولي الثالث «عالم الإسلام: المجتمع والتاريخ والثقافة» كلٌّ من مؤسسة مردجاني - مكتبة الدولة الروسية للأدب الأجنبية، وجامعة الصداقة للشعوب، والمركز الثقافي الأذري في موسكو. وجرى عقد جميع الجلسات العلمية في قاعات مكتبة الدولة للأدب الأجنبية، بحضور كوكبة متميزة من الباحثين والخبراء والمنتدئين من الجامعات والمعاهد العلمية الروسية والمراكز العلمية الدولية.

اشتمل المؤتمر على ١٢ محوراً رئيسياً، بالإضافة إلى الجلسة الافتتاحية، كما تميّز بزيارات ميدانية لبعض المتاحف الروسية ومعارض الصور الفنية والتاريخية.

انطلقت أشغال المؤتمر بجلسة افتتاحية عمومية تضمنت شقين: حُصص الأول منهما لإلقاء الكلمات الترحيبية من قبل اللجنة التنظيمية ورعاية المؤتمر، وتحديد الخطوط الكبرى لبرنامج الجلسات العلمية، بينما حُصص الشق الثاني لإلقاء محاضرات متمحورة حول علاقة الإسلام بالغرب والتحديات المطروحة، وما يرتبط بها من دراسات وملفات علمية، نذكر من بينها المحاضرة التي ألقاها بيرت فراغنر (B. G. Fragner) من الأكاديمية النمساوية للعلوم، معهد «فور ارنستك»،

\* جامعة مولاي إسماعيل في مكناس، المغرب.

القوقاز في بداية القرن العشرين، ثم الدراسة التي تناولت المساجد في مقاطعة داغستان في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين من خلال أرشيف الدولة المركزي لجمهورية داغستان.

أما المحور الثاني من أشغال المؤتمر، فقد حُصص لموضوع «العلوم الإسلامية ونقل المعارف العلمية إلى العالم». وقد ارتكز تحليل آلية الانتقال المعرفي في هذا المحور على إثارة السؤال حول الكيفية التي استقبل بها الغرب الأوروبي خلال القرون الوسطى أفكار المسلمين، من قبيل مقال «في الأشعة» الذي كتبه العلامة الكندي، والإبداعات العلمية التي قدمها نظراؤه من المفكرين المسلمين في علم النجوم وعلم الكارتوغرافيا قبل العالم الجغرافي المغربي الشريف الإدريسي، والطبيعة الموسيقية لقياسات عروض الشعر. كما استعرض الجانبان الإيجابي والسلبي لاستقبال الغرب منجزات الفكر الإسلامي؛ ففي الجانب الإيجابي، تعرضت الأوراق لمسألة اعتماد الجامعات الأوروبية كتباً في الفكر الإسلامي ضمن نظمها التعليمية، مثل كتاب جامع العلوم لفخر الدين الرازي، وهو الكتاب الذي أقر ضمن البرنامج التعليمي للطلاب الأوروبيين في القرون الوسطى، ونهج البلاغة الذي اعتبر آنذاك أنموذجاً للنقاش في التاريخ. وفي الجانب السلبي طُرحت الإشكاليات الناجمة عن تحوير الثقافة الإسلامية في مراكز الاستقبال الأوروبي، خاصة في مجال الدراسات اللاهوتية الإسلامية، حيث قدّم جينس شاينر (J. Scheiner) مداخلة قيّمة في الموضوع تناول فيه الجوانب المهملة في تدريس نبوة محمد.

وفي القسم الخاص بالدراسات النصية من هذا المحور، عالجت الأوراق وثائق حركة الترجمة، وذلك من خلال تقارير حُنين بن إسحاق في إحدى مقالاته المهمة في علم البرديات. كما جرت معالجة

بعد الجلسة الافتتاحية وزيارة المؤتمرين معرض صور مساجد شبه جزيرة القرم القديمة، بمناسبة الذكرى السبعمئة لتأسيس مسجد أوزبكخان، بدأ انعقاد الجلسات العلمية المتخصصة التي توزعت بحسب المحاور الإثني عشر المحددة في المؤتمر.

حُصص المحور الأول لموضوع: «الإسلام في روسيا والمجال الأوراسي بعد الثورة في الأرشيف». وقد كان هذا المحور أرشيفياً بامتياز، وانصبّ فيه اهتمام المتدخلين على إعادة فتح ملفات الوثائق التي تؤرخ للعلاقات الروسية - الإسلامية من منظور جديد، خاصة ما يتعلق بعلاقة العثمانيين ببعض الأقاليم الروسية، من قبيل دراسة علاقة شمال القوقاز بالإمبراطورية العثمانية، وفحص نصوص قوانين بلدية شرق القوقاز التي حددت وضعية متسلكي الجبال المسلمين من القرن السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر. كما عالجت بعض أوراق هذا المحور منطقة داغستان في سياسة الإمام غازي محمد الداغستاني ومشاريعه الجهادية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ورجعت بعض الأوراق إلى فحص التقارير السنوية التي كانت تصدرها أبرشية تركستان اعتماداً على المواد الأرشيفية للدولة الروسية، وأنشطة المسؤولين الروس في محافظة تركستان بين سنتي ١٨٦٥ و١٩١٧. كما أن آسيا الوسطى حظيت بتغطية في هذا المحور الأرشيفي من خلال البحث الذي عالج مسألة الإسلام في التشريع الإمبراطوري الروسي في آسيا الوسطى، ووقف على النظام الأساسي المؤقت للحكم الإقليمي الخاص بها. أما منطقة تركستان، فقد قُدمت بشأنها في هذا المحور ورقة عالجت انتفاضة أنديجان سنة ١٨٩٨.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأوراق المقدمة في هذا المحور الأرشيفي شملت النظم التعليمية والدراسات العمرانية، وهو ما تجسد في الورقة التي تناولت المدرسة الإسلامية والإصلاح في

كما تعرضت مداخله أخرى لإشكالية الجندر وتصادمها مع مسار تحديث المجتمع الإسلامي. وركزت بعض المداخلات على التقاليد في المجتمعات الإسلامية في روسيا واحتكاكها بتغيرات العولمة، خاصة في إقليم غورنو بدخشان، وتقاليد منتوجات «الحلال» في المجتمع الإسلامي في موسكو. واقترحت أبحاث أخرى ضمن هذا المحور توظيف مناهج الأنثروبولوجيا البصرية لفهم ثقافات العالم الإسلامي، في حين انصبت اهتمامات أبحاث أخرى على الجانب التاريخي في رصد العادات والتقاليد في المجتمعات الإسلامية، مثل الورقة التي قدمت حول منطقة بارانجا في آسيا الوسطى، وتقاليد ملابس النساء في الشوارع وفقاً لصور المنمنمات في بخارى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فضلاً عن الورقة المقدمة حول عادة التصوير الفوتوغرافي وردود الأفعال تجاهها في المجتمع الإسلامي خلال الربع الأول من القرن العشرين.

دار المحور الخامس من محاور المؤتمر حول موضوع «الإسلام وعمليات الهجرة». وقد جاءت الأوراق المقدمة في هذه المحور وفق سياقات معنية بشعور بلدان الاستقبال الغربية بالخوف من الهجرات الإسلامية، واتخاذ جميع إجراءات الحيلة والاحتراز عبر ترسانة من القوانين التنظيمية التي تتوخى استيعابها وترويضها بما يتماشى مع سياسة التأقلم والتعايش.

في هذا المنحى جاءت ورقة فاديم أتناشيف (V. Atnashev) «الإسلاموفوبيا والهجرتوموبيا كعاملين لإثارة الصراع في البلدان الأوروبية» لتسلط الضوء على انعكاسات هجرات المسلمين إلى أوروبا، وانقسام الرأي العام فيها بين المواقف المشددة التي تستعمل مقولة الإسلاموفوبيا في صراعها مع التيارات غير المعارضة للهجرات. وينطبق ذلك على الجالية المسلمة في ألاف وبلدة أيون في بلاد الباسك التي عالجتها ورقة جوليتا

التصوف كأداة من أدوات المعرفة الوجودية، ومنظور الحلاج في التقليد الصوفي الفارسي.

تناول المحور الثالث من أشغال المؤتمر موضوع «المخطوطات والكتب النادرة في العالم الإسلامي»، ساعياً إلى كشف الجديد من عيون التراث الإسلامي. لذلك، أتاحت عروض المداخلات للمتلقى الفرصة لاستكشاف بعض النصوص والمتون القليلة الإضاءة في الثقافة الإسلامية، نذكر منها ورقة ألفرد بوستانوف (A. K. Bustanov) المتعلقة بالمقالات الصوفية الأصلية المكتوبة بين القرنين السابع عشر والعشرين، والتي تمّ تجميعها ضمن المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة قازان الفدرالية، وورقة أولغا ياستريوفا (O. M. Yastrebova) بشأن فن الوعظ من خلال مخطوطة كتبها علي الصافي من المكتبة الوطنية الروسية، فضلاً عن مخطوطة أخرى قدمتها إلى المؤتمر تاتيانا ستارودوب (T. H. Starodub)، وهي مخطوطة جديدة تضم «رسائل إخوان الصفا»، وتوجد في مكتبة بودليان، هذا إلى جانب الورقة التي تضم مجموعة من المخطوطات العربية والتركية في مكتبة نوفوسيبيرسك (Novosibirsk).

وجّه المحور الرابع النظر إلى المناهج الأنثروبولوجية والسوسيولوجية لدراسة المجتمعات الإسلامية في روسيا. واتخذ معظم أبحاث جلساته الطابع «الأمبريقي» المستند إلى الدراسات الميدانية التي حاولت أن تلامس موضوعات الهوية، ونوعية الجنس (الجندر)، والتقاليد، وصورة الجسد، وثقافة البصر والصورة، مع ترسيم حدود الاختراقات الممكنة في ظل العولمة المتوحشة.

وفي هذا الصدد تناولت إحدى الأوراق مسألة الإسلام في سيبيريا من خلال نتائج تحقيقات بحثية بشأن تشكيل الهوية الدينية العرقية، بينما عاجلت مداخله أخرى المشكلات العائلية المطروحة بالنسبة إلى المسلمين في مجتمع أذربيجان.

وعالجت أوراق المحور الثامن قضايا الفن والثقافة المادية في العالم الإسلامي، وتمحورت عموماً حول النصوص الشعرية والفنون المعمارية والزخرفية التي أنتجتها الحضارة الإسلامية. وقد قدمت في هذا الصدد ورقة تناولت الشعر في العصور الوسطى كمصدر لدراسة الثقافة المادية في العالم الإسلامي، واتخذت قصر الحكام في ترمذ دراسة لحالة نموذجية. كما عالجت الأوراق الأخرى الآثار الإسلامية في بخارى، والقرب المضلعة في آسيا الوسطى من القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر. كما شكلت منطقة داغستان موضوع بحث فني بشأن تقاليد الثقافة الفنية في منتصف القرن التاسع عشر.

جرت في المحور التاسع معالجة موضوع راهني يتعلق برد الفعل الإسلامي تجاه الحداثة والأفكار. وقد قدمت أوراق هذا المحور إجابات بشأن المواقف التي اصطدمت بالتحويلات التاريخية، والمنعطفات الأساسية في التاريخ الراهن من قبيل المتغيرات السياسية والاجتماعية التي حدثت في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية بعد سنة ١٩٨٩، وانتهاء القطب الثنائي وانحسار المد الشيوعي، وانعكاس هذه المتغيرات على تنظيم الحياة الدينية لمسلمي أوروبا، وعلى المفاهيم السياسية لدى مسلمي شمال القوقاز وتجاذبها بين المحلي والعالمي. كما تطرقت المداخلات في المنحى ذاته إلى أزمة النخب السياسية والفكرية والثورية في البلدان الإسلامية ودول الشرق الأوسط، وحللت أهداف نظرية مقاصد الشريعة كمنهج فكري للإصلاح في العالم الإسلامي. كما تناولت الأوراق الأخرى المقدمة في هذا المحور ثنائية الإسلام والديمقراطية في مفاهيم المفكرين السلفيين في مصر، وموت الإسلاموية، فضلاً عن قضية بالغة الأهمية، وهي مسألة توظيف قوى المجتمع المدني في السياسة الخارجية وعلاقتها بالقوى الإقليمية في

مسخيدزه (J. Meskhidze). وفي البلدان ذات الأقليات الإسلامية كروسيا، صيغت مبادئ توجيهية لتنظيم الهجرات الإسلامية، وهو ما تطرقت إليه مداخلة أليكسي ستاروتسين (A. Starostin) التي اختار لها منطقة الأورال وسيبيريا كمجال لدراسته التطبيقية. ولم يخل هذا المحور من أبحاث ميدانية سلطت الضوء على بعض الإشكاليات المتنامية، خاصة مشكل الهوية في تارستان، وبعض الهجرات التي تجرى بالإكراه.

أما المحور السادس، فدار موضوع أوراقه حول «عواصم العالم الإسلامي: التاريخ والجغرافيا»، وقدمت فيه خمس أوراق، أشار بعضها إشكالية حدود دولة الخلافة من خلال العواصم، وهي الإشكالية التي طرحها إيرينا كونوفالوفا (I. Konovalova) من خلال مداخلة لها بعنوان «عواصم وحدود الخلافة من القرن السابع حتى العاشر الميلادي». كما ساهمت الأوراق الأخرى في تسليط الضوء على الفن المعماري لبعض العواصم الإسلامية أو الحواضر الكبرى، كبخارى ودلهي والقاهرة والإسكندرية.

حمل المحور السابع من محاور المؤتمر سؤالاً منهجياً أيضاً، كما يعكس ذلك عنوانه: «الإسلام المعاصر من منظور سوسيولوجي: الممارسات، الخطابيات، والأسئلة المنهجية»، وقد تناولته مجموعة من الأوراق التي سعت إلى الإجابة عن إشكالية الهوية، وطرحت إشكاليات البحث السوسيولوجي انطلاقاً من حالات محددة، وهو ما يتجلى في الأوراق التي حملت عناوين: «نماذج جديدة للهوية الإسلامية في تارستان وتحديات التحقيق السوسيولوجي لمجتمع ما بعد العلمانية»، و«المسلمون الأوروبيون بين غربية الإسلام ومنهج سعيد: قضية طارق رمضان»، و«نشاط المسلمات والقضايا ذات الطابع المؤسسي: حالة جمهورية تارستان».

على علاقة الروس بالدولة السلجوقية في آسيا الصغرى بين سنتي ١٠٧١ و ١٢٠٤. وقد انطلق من نص ورد في بعض المصادر التاريخية بشأن معركة ملازكرد سنة ١٠٧١، وهو يتضمن خبراً عن مشاركة آلاف من الروس في تلك المعركة ضمن كتائب الجيش البيزنطي. وأكد الباحث أن الروس لم يكونوا مغيبين عن آسيا الصغرى وسواحل البحر الأسود الشرقية والجنوبية، حيث مقر استيطان المسلمين، وأن هذه العلاقات تراوحت بين التبادل التجاري والمناوشات العسكرية، إلى أن اعتنق الروس الديانة النصرانية، فاتخذت العلاقات وجهة أخرى ذات طابع ديني تُرجم في البداية بقيام عدد من الحجاج الروس بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، ثم اشتراكهم بعد ذلك في قتال المسلمين عبر بيزنطة خلال الحروب الصليبية.

في المنحى نفسه، سلطت ورقة الباحث المغربي إبراهيم القادري بوتشيش الضوء على المرأة المسيحية في بلاد الشام، بحسب ما ورد في روايات المؤرخين المسلمين المعاصرين للحروب الصليبية. وأشار بوتشيش إلى أن هذه الحروب التي تمخض عنها استقرار الصليبيين في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين أسفرت عن تعايش حضاري بين المجتمعين الإسلامي والمسيحي، وهو ما أتاح للمسلمين فرصة التعرف عن قرب إلى عادات المجتمع المسيحي، خاصة المرأة المسيحية التي أثارت انتباه المؤرخين المسلمين بسلوكاتها التي كانت بالنسبة إليهم طرازاً غريباً لم يألفوه، فأفردوا لها مساحة إخبارية مهمة وردت ضمن سردهم أحداث الحروب الصليبية. وقد أبانت هذه الورقة عن ثلاثة جوانب من حياة المرأة المسيحية ونشاطها في بلاد الشام، وتتجلى في دورها العسكري وتحملها مسؤولية قيادة الجيش بنجاح، ثم هامش الحرية الجنسية

منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. كما عاجلت إحدى المداخلات مسألة الإسلام في الخطاب السياسي الليبي في مرحلة الجماهيرية العربية الليبية (١٩٦٩-٢٠١١)، وهو ما أعطى هذا المحور ميزة خاصة عارك فيها المتدخلون إشكاليات تحديث الفكر العربي ومعوقاته.

والجدير بالملاحظة أن المحور العاشر في هذا المؤتمر كان بجلسته الصباحية والمسائية محوراً عربياً بامتياز، لكون جميع المتدخلين تقريباً من الباحثين العرب. وتركز موضوع هذا المحور على «المسيحية الشرقية والإسلام»، وانصب فيه اهتمام المتدخلين على البحث عن رؤية الأنا للآخر، ورؤية الذات عند الآخر، وجذور الصلات التاريخية وعلاقات التصارع والسلام بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وصولاً إلى رسم محددات الفضاءات المشتركة بينهما، وتجليات التأثير والتأثير بين الطرفين.

تضمنت الجلسة الصباحية ست مداخلات بدأت بوحدة تحت عنوان «القوى الخارقة للطبيعة في الحرب العربية- البيزنطية (القرن ٧- ١١ م)» للباحث المصري عبد العزيز رمضان، وأثير فيها بعض الكرامات والأحلام الواردة في روايات المؤرخين العرب التي نُسجت لتفسير الانتصارات الحربية التي حققها العرب على حساب البيزنطيين، وكذلك الحال بالنسبة إلى الروايات البيزنطية التي خصّبتها المؤرخون البيزنطيون بعجائب وخوارق، جعلت صاحب البحث يستنتج أن القوى الخارقة لقوانين الطبيعة شكلت قاسماً مشتركاً بين الكتابات التاريخية عند البيزنطيين والمسلمين.

انعكست جدلية التأثير والتأثير بين العالمين الإسلامي والمسيحي أيضاً من خلال التواصل التاريخي، وهي المقاربة التي سعت المداخلات إلى رصدتها، ومن بينها الورقة التي قدمها الباحث السعودي عبد الله الربيعي الذي حاول الوقوف



من الكنائس النصرانية، والتقى رجال الدين فيها، ودخل في محاورات معهم، وهو ما جعله يحصل على ذخيرة من المعلومات بشأن الديانة المسيحية مكنته من ترجمة بعض مقاطع الإنجيل والاقتباس منها.

وفي سياق رؤية الآخر للذات الإسلامية، أبرز الباحث المصري عمر إبراهيم في بحثه «الإسلام في فكر ريكولدو دا مونتني كروتشي، الممارسات الإسلامية نموذجاً» أن دا مونتني كروتشي كان أبرز رجال الدومينيكان الإيطاليين الذين اهتموا بدراسة الإسلام دراسة عميقة، وقد ساعده في ذلك إتقانه اللغة العربية، ومكوته في بغداد مدة طويلة ابتداء من سنة ١٢٩١، حيث كان على صلة وثيقة بالمسلمين، فاستطاع أن يصف معاملاتهم بكثير من الدقة، وذكر عاداتهم وخصالهم الخلقية والدينية على الرغم من أنه كان يكنّ العداوة للديانة الإسلامية كما يتجلى ذلك من كتابه تفنيد القرآن، ومن ثم طرح الباحث إشكالية هذا التناقض بين نفسية حاقدة على المسلمين تأبى خروج أي مادة خبرية إيجابية عنهم، وكثرة المادة والمعلومات الإيجابية التي أوردها بشأنهم، وهو ما اعتبره اختراقاً لحواجز الرحالة المسيحيين النفسية والدينية.

في الجلسة المسائية من المحور العاشر، انصبّ اهتمام المتدخلين على التبادل الثقافي والتواصل الحضاري بين العالمين الإسلامي والمسيحي. وفي هذا الصدد، قدم الباحث المصري سامر السيد ورقة تحت عنوان: «بين التبادل الثقافي وصورة الآخر: العلوم العربية والرؤى المسيحية اللاتينية عن الإسلام في القرن العاشر»، وهي محاولة لتسليط الضوء على العلاقة بين التصورات المسيحية اللاتينية بشأن الإسلام وانتقال العلوم العربية إلى أوروبا في القرن العاشر. يرى صاحب المحاضرة أن النصف الثاني من القرن العاشر شهد بداية

الذي تمتعت بها، فضلاً عن تقديم لوحة مركزية عن عاداتها وتقاليدها في الأعراس والزواج، سواء من المسيحيين من بني جلدتها أو من المسلمين، الأمر الذي أسفر عن انصهار اجتماعي بين أتباع الديانتين، وظهور قواسم حضارية مشتركة.

في البحث الخاص بجذور العلاقات المسيحية - الإسلامية وأيديولوجيتها بحسب الروايات الإسلامية الأولى، أبرزت الباحثة إيفينا ديميتريادو بدوي (E. Dimitriadou-Badawy) أن للإسلام والمسيحية والغرب جذوراً مشتركة، وأنهما يشتركان في جزء كبير من التاريخ. كما ذهبت إلى القول إن من غير الممكن البحث أو الاقتراب من جوهر علاقات المسلمين والمسيحيين لإعادة تقييمها من دون العودة إلى جذورها التاريخية في حقبة ما قبل المسيحية وما قبل الإسلام؛ لأن هذه العودة تشكل المرجعية الضرورية لاكتشاف دور الثقافة الهيلينية في نحت التاريخ والتراث المشترك بين الديانتين. واعتبرت الباحثة أن موقفي الرسول محمد (ﷺ) الأيديولوجي الرسمي والإيجابي من بيزنطة هما نتيجة عميقة للتواصل التاريخي بين بيزنطة والجزيرة العربية. وخلصت إلى القول إن الجدل القائم اليوم بين المسيحية والإسلام لا يعزى إلى اختلافات جوهرية، بل إلى محاولات معاكسة لضرب التقارب بين الديانتين.

تناول الباحث الأردني محمد خريسات في بحثه الموسوم بـ «رؤية المؤرخ السعودي للديانة المسيحية» بالدراسة والتحليل رؤية المؤرخ السعودي من خلال كتابه مروج الذهب للسيد المسيح؛ إذ رصد كل المعلومات البيوغرافية الخاصة به: ولادته ونشأته ونشره تعاليم الديانة المسيحية، وموقف الدولة البيزنطية من هذه الديانة. كما تعرض لمسألة صلب المسيح، مبرزاً موقفه - كمؤرخ - من الديانة المسيحية، خاصة أنه كان مطلعاً على الأناجيل الأربعة، وزار كثيراً

تمثلت أيضًا في السفارات التي كانت إما لدعوة الآخر إلى الإسلام من قبل أحد الخلفاء، كرسالة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز للإمبراطور ليو الثالث الأيسوري، وإما لتبادل الأسرى، أو لتوثيق عرى التواصل وتبادل الهدايا. وتطبيق لذلك، تناولت حالة العلاقات الدبلوماسية التي جمعت بين المسلمين وحكام قبرص خلال القرون الستة الأولى من عمر الدولة الإسلامية، واستعراض ما جرى بينهما من مراسلات، وطبيعة العلاقة التي جمعت بينهما، والتي كان الجانب الديني يشكل محوراً مهماً فيها. وفي هذا السياق، أوردت الباحثة رسالة الإمام أحمد بن تيمية إلى حاكم قبرص، وهي عبارة عن دعوة موجهة إليه كي يدخل في الإسلام، ويفند فيها عقيدة الحاكم القبرصي. وخلصت الباحثة إلى القول إن هذه الرسالة تعكس فلسفة المسلمين حكماً وفقهاء في دعوة غير المسلمين إلى اعتناق الإسلام.

في الجلسة ذاتها، قدم الباحث الروسي ميخائيل ديمتريف (M. V. Dmitriev) ورقة في موضوع: «المسلمون والمسيحيون الروس في مسكوفي (خلال القرنين ١٤-١٧): مفارقات التفاعل»، وهي دراسة مبنية على فرضيات بشأن الموقف من الإسلام والمسلمين في جزء من أرض الدولة الموسكوفية ومن الثقافة الروسية الأرثوذكسية في روسيا خلال الحقبة الممتدة بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، وهي فرضية سبق أن طرحها ضمن مشروع علمي اعتمد فيه على التاريخ المقارن، وخاصة المقارنة بين التقاليد الأرثوذكسية البيزنطية في أوروبا الشرقية، والتقاليد اللاتينية في غرب أوروبا وتأثيرهما في المواقف من غير المسيحيين في المنطقة التي شكلت مدار بحثه.

ختم الباحث السعودي صالح السندي جلسة هذا المحور بورقة خصصها لـ «قراءة في رسالة ابن فضلان عن بلاد الروس وأهلها»، وفيها أبرز

مرحلة جديدة من العلاقات بين العالم الإسلامي وأوروبا، كانت الأندلس خلالها تجسّد جسراً معرفياً لتبادل الأفكار بين صفتي المتوسط، وبدأت في هذه الفترة حركة ترجمة العلوم العربية إلى الثقافة اللاتينية، وخاصة في مجال العلوم الرياضية، وهو ما انعكس عليه زيارة الراهب الفرنسي جريير دو أوريك (G. d'Aurillac)، أو البابا سلفستر الثاني، لإسبانيا الإسلامية بين سنتي ٩٦٧ و ٩٧٠، حيث درس هناك الرياضيات والفلك، واشتهر في تاريخ العلم بكونه أول من نقل واستخدم الأعداد العربية في محيط الثقافة اللاتينية. ومن المثير للاهتمام - كما يرى صاحب الورقة - أن هذا التلاقح الثقافي بين العالمين الإسلامي والمسيحي لم ينتج منه تصور جديد أو رؤية أوروبية مختلفة عن الإسلام والمسلمين. وتعكس هذه الحالة كتابات الراهبة والشاعرة السكسونية روزفيتا جاندرشيم (R. Gandersheim)، وسيرة يوحنا من جورز (Johannis Gorziensis) التي دونها رئيس رهبان دير القديس أنولف. فعلى الرغم من أن الراهبة الألمانية مدحت قرطبة بوصفها مدينة تجري فيها جداول المعرفة السبعة، ونقل الثاني (يوحنا من جورز) أعمالاً علمية مترجمة عن العربية في أثناء عودته إلى اللورين، فإن ذلك لم يُغيّر من نظرة هذين الكاتبين العدائية تجاه الإسلام والمسلمين، وظلت التقاليد الكنسية والقوالب النمطية هي السمة الغالبة في كتاباتهم.

في سياق الاحتكاك بين العالمين الإسلامي والمسيحي، قدمت الباحثة السعودية سلطنة ملاح الرويلي بحثاً حول «سياسة المسلمين الدينية تجاه قبرص زمن المهاليك البحرية الرسالة القبرصية لأحمد بن تيمية أنموذجاً: دراسة تحليلية». وتذهب ورقتها إلى القول إن علاقة العرب المسلمين بالشعوب التي تجاورها لم تقتصر على الصراعات العسكرية أو العلاقات التجارية والاقتصادية، بل

الذاتي، وهي موضوعات قام المتدخلون في هذه الجلسة بتحليلها واستخلاص الخلاصات منها، مع الدعوة إلى إعادة النظر في مسألة الإسلاموفوبيا المهيمنة على ذهنية المجتمعات الغربية.

أما المحور الثاني عشر والأخير من محاور المؤتمر، فقد تصدى لمعالجة موضوع «الدلالات الفلسفية في الثقافة الإسلامية»، وتمحورت الأوراق المقدمة فيه حول دراسة المثل العليا للمعرفة في الإسلام خلال العصور الوسطى، وبعض النظريات السياسية والمعرفية في الثقافة الإسلامية وانعكاساتها في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر. وجرى التركيز في مجال النظريات الإسلامية الكلاسيكية على مفهوم القوة في النظرية السياسية لابن رشد من خلال كتابه تلخيص السياسة، وعلى التراث الفلسفي لابن باجة كموضوع للتأمل النظري، وتشكيل رؤى القشيري كعلامة على استمرارية الأيديولوجيا في الفكر الإسلامي.

هذا وقد تخللت أشغال جلسات المؤتمر مناقشات علمية رصينة في تعقيبات تلت كل مداخلة لإثراء الأفكار وتعميقها، أو اقتراح مسارات فكرية جديدة، وهو ما أغنى أشغال المؤتمر وولّد أسئلة جديدة وورشًا فكرية قابلة للبحث مستقبلاً.

وعلى هامش المؤتمر، نُظِّمت زيارات إلى بعض المتاحف، كمتحف الدولة للفن الشرقي، ومعارض للصور التاريخية والتراثية.

ولا يسع متابع أشغال المؤتمر إلا أن يسجل أيضًا، وبكل موضوعية، دقة التنظيم الذي ساهم فيه الطلاب الروس المنتمون إلى الجهات العلمية المنظمة. ويمكن قراءة الإيجابيات الأخرى من خلال مبادرة تنظيم هذا المؤتمر للمرة الثالثة على التوالي، وهو أمر يحمل شحنة دلالية تعكس اهتمام المؤسسات العلمية الروسية والباحثين الروس بالفكر العربي-الإسلامي، قديمه وحديثه، كما

أن الرحالة العربي البارز أحمد بن فضلان يُعتبر ممن كان لهم قصب السبق في الكتابة عن الروس، والتعريف بهم لدى العرب، وقد أرسله الخليفة العباسي المقتدر بالله ضمن بعثة رسمية إلى ملك الصقلية في حوض الفولغا بطلب من ملكها، بهدف تفقّحه في أمور الدين وتعريفه بشرائع الإسلام. وقد وصلت البعثة إلى بلاد البلغار في أيار/ مايو ٩٢٢، وهناك زار الوفد بلاد العجم والترك والصقلية والروس وإسكندنافيا والخرز، وعندما عاد ابن فضلان إلى بغداد، سجّل وقائع رحلته إلى بلاد الروس، وهو الكتاب الذي يُعدّ في نظر الباحث مصدرًا مهمًا لتاريخ الروس والبلاد التي زارها في بداية القرن العاشر، لأنه سجّل حقائق تاريخية نادرة، وشكّل نقلة نوعية في فن كتابة الرحلة العربية التي كانت غارقة في مفاهيم السرد، فنقلها إلى مستوى تحليل تاريخ شعوب وقبائل لم يكن العالم يعرف عنها شيئًا يُذكر. وقد قسم الباحث ورقته إلى مبحثين: تناول في المبحث الأول الرحالة ابن فضلان وظرفية ودوافع رحلته إلى بلاد الروس وخط سير الرحلة، بينما عالج في المبحث الثاني مشاهداته ووصفه لبلاد الروس وساكنتها، وذكر عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم ومعتقداتهم، وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية.

في المحور الحادي عشر تمّ تناول موضوع في غاية الأهمية، وهو: «الإسلاموفوبيا في روسيا خلال القرنين ٢٠ و٢١»، وقُدِّمت في جلسيته ست أوراق. يمكن اختزال أهم الأفكار والقضايا التي طُرحت في تقديم رؤى تتوخى وضع أسس تصورات الإسلاموفوبيا في روسيا الحديثة، وما تحدّثه التعليقات البصرية من زخم للإسلاموفوبيا في تارستان، فضلًا عمّا أثارته بعض المداخلات حول مضادات تيارات الكراهية للأجانب، وما أحدثته مسألة الإسلاموفوبيا لدى المسلمين من تحفيز للنقد



لترجمة، سواء بالنسبة إلى المشاركين العرب أو بالنسبة إلى المشاركين الروس، أو نظرائهم من الجنسيات الأخرى، وهو ما فوّت الفرصة على المشاركين في الاستفادة المشتركة؛ فباستثناء الجلسة الافتتاحية، كانت وسائل الترجمة معيّبة في الجلسات الأخرى، مما أعاق حضور المشاركين في عدد منها، ولم يسمح بمناقشة بعض الأوراق التي أُلقيت باللغة الروسية أو باللغة العربية.

وبالمثل، فإن كثرة عدد للمشاركين في المؤتمر فرضت تنظيم جلسات علمية موازية، وهو ما لم يُتَحِ الفرصة للاستفادة من الجلسات كافة، فأُسفر عن ضالة حُجج الجمهور الذي تابعها. ونسجل أيضًا هيمنة التمثيل الروسي في خارطة الباحثين، وإن كان هذا الأمر يبدو بديهيًا لأن روسيا هي البلد المنظم. ومع ذلك، فإن النقد الموضوعي يستلزم القول بأهمية توسيع دائرة المشاركين من بلدان آسيا وأميركا اللاتينية وغيرها من الأصقاع التي لا تخلو من باحثين متخصصين بالمجال الإسلامي.

وبما أن موضوع المؤتمر تمحور حول المجتمع والثقافة في العالم الإسلامي، فإن المتبّع يلاحظ غياب موضوع الربيع العربي الذي يُعتبر موضوعًا راهنيًا في غاية الأهمية، لما تركه من بصمة واضحة وتغيير في مجرى الديمقراطية العربية الحديثة.

ومع ذلك، شكلت أبحاث المؤتمر إضاءات جديدة حول الثقافة الإسلامية في تفاعلها مع العالم المسيحي ومع الثقافة الكونية، وأعتقد أن نشرها سيعطي إضافات معرفية قيمة لما كُتب عن تراث الإسلام وما أنتجه العقل الإسلامي قديمًا وحديثًا، كما أنها ستساهم في توليد رؤى وتصورات جديدة بشأن مستقبل العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، في ضوء المتغيرات العالمية الراهنة.

تعكس اهتمامهم المستمر بقضايا العالم العربي الراهنة، الأمر الذي يساهم في تلحيم علاقات الباحثين العرب بزملائهم الروس وغيرهم من الباحثين المهتمين بالشؤون العربية، وهي مبادرات من شأنها أن توطن العلاقات العربية - الروسية وتساهم في دعم «الدبلوماسية الموازية».

ويسجّل للمؤتمر أيضًا أنه أتاح الفرصة من جديد لإعادة قراءة الثقافة العربية - الإسلامية من مواقع ورؤى متعددة، وبمقاربات وأدوات منهجية متكاملة. كما أن محاوره اتسمت بالتنوع والثراء الذي أفرز هذا «الكشكول» من المواد الثقافية والبحثية التي استطاعت أن تقدم توليفة تجمع بين ربايد الأرشيفات، واكتشاف الكتب النادرة والمخطوطات، وعرض جوانب مهمة من فضاء الفن المعماري، وسبر غور الدراسات المنفتحة والمناهج السوسولوجية والأنثروبولوجية، وتحليل الخطاب، واختبار التاريخ المقارن، وفتح ملف الترجمة وانتقال الأفكار، وإثارة سؤال الحداثة وما بعد الحداثة والعولمة والهوية، وتحالف الحضارات، والموقف من الذات ومن الآخر، وكلها موضوعات راهنية لا تزال تشكّل ملفات مفتوحة للنقاش والحوار.

ومع أن بعض المداخلات الغربية جاءت مثقلة بأيديولوجية المصالح، فإن التوجه العام جنح نحو إبراز تجليات الثقافة، وإبراز دور الديانات في الحوار، والبحث عن المشتركات التي تروم تجسير الصلات بين الشعوب، بل إن بعض الأبحاث المقدمة لم يخلُ من إنصاف الحضارة الإسلامية وإبراز «هيو مانيتهها» ودورها في الإبداع والإشعاع العلمي على المستوى الكوني.

بيد أن هذا التوهج العلمي الذي شهده المؤتمر لم يخل دون وجود بعض السلبيات التقنية التي يمكن تجاوزها في دورات المؤتمر المقبلة، وتتجلى، على وجه الخصوص، في انعدام الوسائل التقنية